الاحتباك في الخطاب القرآني. قراءة في جمالية التماسك النصّي

د. مختار بن قويدر
قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة معسكر

مختصر:
أسهمت الدراسات النقدية والبلاغية إسهاما كبيرا في تزويد المدونات النقدية بمصطلحات كثيرة، تطلع على القارئ يوما إثر يوم، فمن الانتحال إلى السرقات، ومن اللفظ والمعنى إلى خطاب الطبع والصنعة، ومن التخييل والاستعارة إلى عمود الشعر وهكذا.

ولقد عالج النقاد والبلاغيون والأسلوبيون والمفسرون فنا من فنون البديع ألا وهو: الاحتباك أو الحذف التقابلي. وهو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل. ومأخذ هذه التسمية من الحَبْك، وهو الشدّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فَحَبْكُ الثوب هو سَدُّ ما بين خيوطه من الْفُرَج وشَدُّهُ وإحكامه إحكاماً يمنع عنه الخَلَل، مع الْحُسْنِ والرونق. وقد طبقت في هذه المقالة على نصوص قرآنية كريمة، وبينت فيها كيف أدى هذا الضرب من الحذف إلى التماسك النصي، مع تذوق فائق وإدراك عال للجمال.

[وكيف يستطيع (الإنسان) أن يُقاوم جمالَ هذه اللغة ومنطقَها السليم وسحرَها الفريد؟، فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة، حسبما كان يشكو أساقفة اسبانية بمرارة. فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتعلمون اللغة العربية بشغفٍ، حتى إن اللغة القبطية مثلاً ماتت تماماً، بل إن اللغة الآرامية –لغة المسيح– قد تخلّت إلى الأبد عن مركزها لتحتلّ مكانها لغة محمد][1]

مقدمة:

لقد تحدث علماء البلاغة المفسرون كثيرا في علوم البديع على اختلاف أنواعه، ومن البديع الذي عالجه أولئك العلماء، ذكروا أسلوب الحذف، إذ يُعد ظاهرة لغوية تسهم إسهاما كبيرا في عملية التماسك النصي.

وهو ضرب من الْإِيجَازِ الْمُؤَدِّي لِلْمَعَانِي الْمُتَعَدِّدَةِ بِأَخْصَرِ عِبَارَة، والمنطوية على أرفع الخصائص البيانية. وعن طريق هذا الأسلوب– وغيره من أضرب البديع–يظهر مزيد الارتباط والتضام وغاية الاحتباك والالتحام في النص القرآني.

وظاهرة الحذف قديمة قدم اللغة نفسها، فما من لغوي أو نحوي أو بلاغي من القدماء إلا تناول ظاهرة الحذف بصورها المختلفة، غير أن معظم الدارسين عالج قضية الحذف في اللغة بوجه عام، وبعضهم تناول الحذف في القرآن الكريم غير أنه لم يوجه اهتمامه إلى الربط بين ظاهرة الحذف وتماسك النص، ومن ربط منهم بين الحذف وتماسك النص لم يطبق ذلك إلا على السور المكية.

والحق إن كثيرا من القدماء—وخاصة البلاغيين والذين كتبوا في علوم القرآن: كالزركشي، والسيوطي، وغيرهما— لم يغفلوا العلاقة بين الحذف وتماسك النص القرآني؛ حيث وضعوا أيدينا على ذلك من خلال إبرازهم لأنماط

الحذف في القرآن الكريم، ودلالاته، إلا أنهم لم يصرحوا بما صرّح به علماء النص في العصر الحديث من دور الحذف في تحقيق التماسك النصي.

وإذا كان الحذف يمثل قيمة أسلوبية في اللغة بوجه عام؛ لأنه نوع من الإيجاز الذي يدل على بلاغة المتحدث أو الكاتب– فإنه يمثل قيمة أسلوبية عالية في النص القرآني، حيث يُعد وجها من وجوه إعجازه"[2].

وقد ذكر العلماء والبلاغيون أن الحذف ينقسم إلى خمسة أقسام.

القسم الأول: الاقتطاع. **القسم الثاني**: الاكتفاء. **القسم الثالث**: التضمين. **القسم الرابع**: الاحتباك. **القسم الخامس**: الاختزال.

غير أنني في هذه الدراسة سأكتفي بذكر النوع الرابع من أنواع الحذف، ألا وهو الاحتباك أو الحذف التقابلي.

فما معنى الاحتباك وما دوره في تماسك النص؟

دلالة المصطلح:

مفهوم الحَبْك لغةً:

لقد تحدثت المعاجم عن هذا الجذر اللغوي [ح، ب، ك] وكلهم يتفقون على أن الحبك يعني الشد والإحكام في الصنعة، والمتانة في الخلق والضبط والإتقان، وقد يعني الحبك الطريق في السماء أو الحُسْن ومنتهاه وما إلى ذلك.

قال ابن منظور:"الحَبْك الشدّ واحْتَبك بإزاره احْتَبَى به وشدَّه إلى يديه ..وقيل الحُبْكة الحُجْزة بعينها ومنها أُخِذ الاحْتِباكُ بالباء وهو شد الإزار ..وتَحَبَّكَ شد حُجْزته وتَحَبَّكتِ المرأَة بنِطاقها شدته في وسطها وروي عن عائشة أَنها كانت تَحْتَبِك تحت دِرعها في الصلاة أَي تشد الإزار وتحكمه قال أَبو عبيد قال الأَصمعي الاحْتِباك الاحتباء ولكن الاحْتِباك شدُّ الإزار وإِحكامه أَراد أَنها كانت لا تصلي إِلا مُؤْتَزِرةً.. وحُبُك السماء طرائقها وفي التنزيل والسماء ذات الحُبُك يعني طرائق النجوم واحدتها حَبِيكة. وروي عن ابن عباس في قوله تعالى والسماء ذات الحُبُك الخَلْق الحسن قال أَبو إِسحق وأَهل اللغة يقولون ذات الطرائق الحسنة، والمحْبُوك ما أُجيد عمله والمحْبُوك المحْكَمُ الخلق من حَبَكْتُ الثوب إِذا أَحكمت نسجه قال شمر ودابة مَحْبُوكة إِذا كانت مُدْمَجة الخلق قال وكل شيء أَحكمته وأَحسنت عمله فقد احْتَبَكْتَه وفرس مَحْبوك المِتْن والعجز فيه استواء مع ارتفاع. ويقال للدابة إِذا كان شديد الخلق مَحْبوك والمِحْبوك الشديد الخلق من الفرس وغيره، وجادَ ما حَبَكَهُ إِذا أَجاد نَسْجه وحَبَكَ الثوب يَحْبِكُه ويَحْبُكه حَبْكاً أَجاد نسجه وحسَّن أَثر الصنعة فيه. وثوب حَبِيك مَحْبوك وكذلك الوَتَرُ.."[3].

كما نجد الزبيدي صاحب التاج يوافق ابن منظور في تعريفه قائلا:" الحبكُ: الشَّدُّ والإِحْكامُ وإِجادَةُ العَمَلِ والنّسج وتَحْسِين أَثَرِ الصنعَةِ في الثَّوْبِ يُقال: حَبَكَه يَحْبِكُه ويَحْبُكُه حَبكاً: أَجادَ نَسجه وحسَّنَ أَثَرَ الصَّنْعَةِ فيهِ كاحْتَبكه: أَحْكَمه وأَحْسَنَ عَمَلَه فهو حَبِيكٌ ومَحْبوك. يقال: ثَوْبٌ حَبِيكٌ ومَحْبُوكٌ: أحْكِم نَسجُه، وكذلك وَتَرٌ حَبِيكٌ، وأَنْشَدَ ابنُ الأعرابي لأبي العارِمِ:

فهَيَّأْتُ حَشْراً كالشِّهابِ يسوقُه ... مُمَرٌّ حَبِيكٌ عاوَنَتْه الأشاجِعُ

وكلُّ شيءٍ أَحْكَمْتَه، وأَحسَنْت عمَلَه فقد احتَبَكْتَه "[4] .

وبالإضافة إلى هذا التعريف نجد الفيومي صاحب المصباح المنير، يضيف شيئا آخر وهو الاحتباء وهو بمعنى التحسين والإحكام.يقول:" احْتَبَكَ بِمَعْنَى احْتَبَى وَقِيلَ الِاحْتِبَاكُ شَدُّ الْإِزَارِ وَمِنْهُ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الصَّلَاةِ تَحْتَبِكُ بِإِزَارٍ فَوْق الْقَمِيصِ وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ كُلُّ شَيْءٍ أَحْكَمْتَهُ وَأَحْسَنْتُ عَمَلَهُ فَقَدْ احْتَبَكْتَهُ"[5].

بعد هذا التعريف المسهب للاحتباك من طرف المعجميين، ننتقل إلى التعريف الاصطلاحي لدى الأسلوبيين والمفسرين.

الاحتباك اصطلاحا:

قلت من قبلُ: إنّ العلماء قد أطلقوا مصطلحا مرادفا للاحتباك، ألا وهو الحذف التقابلي؛ ولكن ما الداعي إلى هذه التسمية؟

إنّ هذا النوع من الحذف عالجه الزركشي والسيوطي وغيرهما، وأطلق عليه الزركشي الحذف المقابلي، وسماه السيوطي الاحتباك.

الاحتباك: هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.ومأخذ هذه التسمية– كما أسلفنا القيل – من الحَبْك، وهو الشدّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فَحَبْكُ الثوب هو سَدُّ ما بين خيوطه من الْفُرَج وشَدُّهُ وإحكامه إحكاماً يمنع عنه الْخَلَل، مع الْحُسْنِ والرونق.

وبيان أخذ هذه التسمية من حَبْكِ الثوب أنّ مواضع الحذف من الكلام شُبِّهَتْ بالْفُرَجِ بين الخيوط، فلمّا أدْركها المتدبر البصير بصياغة الكلام، الماهر بإحكام روابطه، وأدْرك مقابلاتها، تنبّه إلى ملء الفُرَج بأمثال مقابلاتها، كما يفعل الحائك حينما يُجْري حبكاً مُحْكماً في الثوب الذي ينسجه[6].

ويزيد السيوطي من ذكر محاسن الاحتباك، ويذكر بأن القليل من البلاغيين والعلماء الذين عالجوه وتفطنوا إلى قيمته الإبداعية، حيث يقول:"وهو من ألطف الأنواع وأبدعها وقَلَّ من تنبّه له أو نبّه عليه من أهل فنّ البلاغة "[7].

ويعطينا الجرجاني تعريفا مقتضبا قائلا:" الاحتباك هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه، كقوله:

عَلفتها تِبْناً وماءً بارداً، أي علفتها تبناً، وسقيتها ماءً بارداً."[8].

ويمكن أن نستأنس ببيت للشاعر الأموي المفلق الفرزدق (همام بن غالب)، يتجلى فيه جمال الاحتباك ودوره في التسلسل الفكري والفني للغة، والحبك الرائع الملذوذ.يقول الفرزدق:

كَمْ عمَّة لكَ يا جريرُ وخالة ... فدعاء قد حلبَت علي عِشاري

والبيت من قصيدة للفرزدق يهجو جريرا وقبله قوله:

كَمْ مِن أبٍ لي يا جريرُ كأنهُ قمرُ المجرةِ أو سراج نهارِ

ورثَ المكارمَ كابرا عن كابرٍ ضخم الدسيعةِ كلَّ يومٍ فخارِ[9]

ويتجلى الاحتباك فيما يلي:

كم عمة (فدعاء) لك يا جرير وخالة ... فدعاء (لك) قد حلبت علي عشاري

1–كم عمة (فدعاء) لك يا جرير وخالة:

2– فدعاء (لك) قد حلبت علي عشاري

فصفة (فدعاء) حذفت من المعادلة (**1**) وأثبتت في المعادلة(**2**)، بيد أنّ كلمة(لك) أثبتت في(**1**) وحذفت من(**2**)، وهذا ضرب من الحذف التقابلي أو الاحتباك، يزيد من تماسك النص وينتج لذة لدى القارئ المتلقي.

وقد ذكر البقاعي[10] في تفسيره نظم الدرر أن هذا الفن غير قليل في القرآن الكريم، ويأتي لوجه فني وبلاغي راقٍ، كما أفرده بتأليف أسماه:" الإدراك لفن الاحتباك".

ولولا أن مجاله فسيح جدا، وصوره عديدة، وأسراره لطيفة، لما عالجه المفسرون بكثرة وإسهاب وقد أكثر البقاعي منه في تفسيره، غير أنه لم يكن متوقفًا عند الأسرار البلاغية لكل صورة من صوره.

أثر الاحتباك في تماسك النص القرآني:

كيف ندرك أثر الاحتباك في تماسك النص القرآني؟ للوقوف على هذه الحقيقة لابد من استعراض نماذج لبعض الأسلوبيين و المفسرين وعلماء لغة، أبيّن فيها كيف استطاع أولئك الدارسون أن يثبتوا بالدليل القاطع والبرهان الساطع، أن القرآن الكريم معجز بلفظه- كما هو معجز في معناه- ومن بين أدلة الإعجاز: التماسك النصي، والإحكام اللفظي،والسبك الفريد، والحبك الذي لا نظير له.

أما النماذج التي أقدمها –إن شاء الله-فستكون على النحو الآتي:

- النموذج الأول:

قوله تعالى: (**فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ**)[11] حذف تقابلي أو احتباك رائع، وكل طرف في هذه الآية الكريمة مبتدأ محذوف الخبر، أى فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان[12].

أ – فئة (بالاحتباك): _____ (مؤمنة) تقاتل في سبيل الله.

ب- بالاحتباك :(فئة) أخرى ____ كافرة تقاتل في سبيل الشيطان.

ففي المعادلة رقم(أ) أثبتت الكلمة(فئة) وحصل حذف الكلمة(مؤمنة)، أما في المعادلة(*ب*) حصل حذف الكلمة(فئة)، وأثبتت الكلمة(كافرة)، فما أثبت في الطرف الأول حذف من الثاني، وما أثبت في الطرف الثاني غيّب من الأول، وهو (احتباك)/حذف تقابلي رائع بلغ حد الروعة والإحكام، وكلام معجز لا مثيل له في كلام الخلق.

ونجد صاحب كتاب (إعراب القرآن وبيانه) يشير إلى هذه الآية الكريمة، ويقول بأنها اشتملت على أرفع الخصائص البيانية "ففي قوله تعالى: «فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة» حذفٌ من الكلامين، وتقديره: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان. فحذف من الأول ما يفهم من الثاني، وحذف من الثاني ما يفهم من الأول" [13].

ولقد تنبّه النقاد والبلاغيون إلى القيمة الفنية للحبك، كما تنبهوا أيضا إلى دور السبك؛" فإذا كان معيار **السبك** مختصا برصد الاستمرارية المتحققة في ظاهر النص، فإن معيار **الحبك** يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجا و إبداعا، أو تلقيا و استيعابا، وبها يتم احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات – أو إضفائها عليها إن لم تكن واضحة مستعلنة- على نحو يستدعي فيه بعضها بعضا،و يتعلق بواسطته بعضها ببعض"[14].

-النموذج الثاني:

قوله تعالى:(**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) [15]

و كما نرى هنا في قوله سبحانه:{ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ } فالرؤية قلبية لا بصرية، أي ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم ، قال بعض الرجاز :

النوم راحة القوى الحسية من حركات والقوى النفسية

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله، الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان.. ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهاراً لانعدمت الحياة على وجه الأرض؛ وكذلك لو كان الدهر كله ليلاً. لا بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات، ولتجمد في الليل كل نبات. وعندئذ تستحيل الحياة. ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات [16].

ولكن كيف وقع الاحتباك في هذه الآية الكريمة؟
تقدير الكلام هكذا:
جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه (أ)
جعلنا النهار مبصرا لينتشروا فيه ***(ب)***
فكلمة (مظلما) تقابلها كلمة (مبصرا)، وكلمة (ليسكنوا فيه) تقابلها كلمة (لينتشروا فيه)، فحذف من (أ) مظلما لدلالة الكلمة (مبصرا) عليه في **(ب)**، وحذفت كلمة (لينتشروا فيه) من **(ب)** لدلالة الكلمة (ليسكنوا فيه) في (أ). وبالتالي تكون علاقة الاحتباك هكذا:
أ – جعلنا الليل ليسكنوا فيه(بالاحتباك) ---------- مظلما
ب – جعلنا النهار مبصرا (بالاحتباك) ---------- لينتشروا فيه

- النموذج الثالث:
قوله عزَّ مِن قائل:(**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**)[17].
وفي هذه الآية الكريمة مثل مضروب لفئتين من الناس: المؤمنين والكافرين، وفيه ضرب من أسلوب السخرية والتهكم بالذين يتخبطون في التيه والضلال، تاركين طريق الهدى والرشاد.
يقول صاحب التحرير والتنوير:"..وَالَّذِي انْقَدَحَ لِي: أَنَّ التَّمْثِيلَ جَرَى عَلَى تَشْبِيهِ حَالِ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ بِحَالَةِ مَشْيِ إِنْسَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَعَلَى تَشْبِيهِ الدِّينِ بِالطَّرِيقِ الْمَسْلُوكَةِ كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ: عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فَلَا بُدَّ مِن اعْتِبَارِ مَشْيِ الْمُكِبِّ عَلَى وَجْهِهِ مَشْيًا عَلَى صِرَاطٍ مُعْوَجٍّ .
وقد حَصَلَ فِي الْآيَةِ إِيجَازُ حَذْفٍ إِذِ اسْتُغْنِيَ عَنْ وَصْفِ الطَّرِيقِ بِالْلِتِوَاءِ فِي التَّمْثِيلِ الْأَوَّلِ لِدَلَالَةِ مُقَابَلَتِهِ بِالْاسْتِقَامَةِ فِي التَّمْثِيلِ الثَّانِي.
وَالْمُكِبُّ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَكَبَّ، إِذَا صَارَ ذَا كَبٍّ، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ أَصْلُهَا لِإِفَادَةِ الْمَصِيرِ فِي الشَّيْءِ مِثْلُ هَمْزَةِ: أَقْشَعَ السَّحَابُ، إِذَا دَخَلَ فِي حَالَةِ الْقَشْعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَنْفَضَ الْقَوْمُ إِذَا هَلَكَتْ مَوَاشِيهِمْ، وَأَرْمَلُواْ إِذَا فَنِيَ زَادُهُمْ، وَهِيَ أَفْعَالٌ قَلِيلَةٌ فِيمَا جَاءَ فِيهِ الْمُجَرَّدُ مُتَعَدِّيًا وَالْمَهْمُوزُ قَاصِرًا.
وأَهْدى مُشْتَقٌّ مِنَ الْهُدَى، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ وَهُوَ اسْمُ تَفْضِيلٍ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ لِأَنَّ الَّذِي يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ لَا شَيْءَ عِنْدَهُ مِنَ الْاهْتِدَاءِ..وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْلُو مِنْ تَهَكُّمٍ أَوْ تَمْلِيحٍ بِحَسَبِ الْمَقَامِ.
وَالسَّوِيُّ: الشَّدِيدُ الْاسْتِوَاءِ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ قَالَ تَعَالَى: (**أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا**) [18].
وَ (أَمْ) فِي قَوْلِهِ: أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا حَرْفُ عَطْفٍ وَهِيَ (أَمْ) الْمُعَادِلَةُ لِهَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ. وَ (مَنْ) الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ فِي قَوْلِهِ: أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا أَوْ قَوْلِهِ: أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا مَوْصُولَتَانِ وَمَحْمَلُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمَا فَرِيقُ الْمُؤْمِنِينَ وَفَرِيقُ الْمُشْرِكِينَ، وَقِيلَ: أُرِيدَ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ أُرِيدَ بِالْأُولَى أَبُو جَهْلٍ، وَبِالثَّانِيَةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَو أَبُو بَكْرٍ أَوْ حَمْزَةُ رَضِيَ الله عَنْهُمَا [19]
وبما أننا نروم الوقوف على التماسك النصي من خلال الاحتباك الذي جرى في هذه الآية، فإنّ الحذف وقع في طرفي الجملة، إذ حُذِف نصف كل واحدة منهما اكتفاءً بنصف الأخرى.
وأصل الكلام:(أفمن يمشي مكبّا على وجهه أهدى ممن يمشي سويا على صراط مستقيم، أمّن يمشي سويا على صراط مستقيم أهدى ممن يمشي مكبا؟!).
وإنما قلنا: إنّ أصله هكذا، لأن أفعل التفضيل لابد في معناه من المفضَّل المفضل عليه، وها هنا وقع السؤال عمن في نفس الأمر: هل هذا أهدى من ذلك أو ذاك أهدى من هذا؟

فلابد من ملاحظة أربعة أمور، وليس في الآية إلا نصف إحدى الجملتين، ونصف الأخرى، والذي حذف من هذه مذكور في تلك، والذي حذف من تلك مذكور في هذه، فحصل المقصود مع الإيجاز والفصاحة، ثم ترك أمرا آخر لم يتعرض له، وهو الجواب الصحيح لهذين الإستفهامين، وأيهما هو الأهدى؟ لم يذكره في الآية أصلا، اعتمادا على أنّ العقل يقول: الذي يمشي على صراط مستقيم أهدى ممن يمشي مكبا على وجهه[20]، و هذا كقوله تعالى: **(أَفَمَن يَخلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أفلا تَذَكَّرونَ)**[21].

ويمكن أن نمثل للاحتباك الواقع في هذه الآية هكذا:

أ- أفمن يمشي مكبّا على وجهه أهدى ممن يمشي سويا على صراط مستقيم؟!

ب- أمّن يمشي سويا على صراط مستقيم أهدى ممن يمشي مكبا؟!

فحذف من الطرف *(أ)* الكلام: ممن يمشي سويا على صراط مستقيم

وحذف من الطرف ***(ب)*** الكلام: أهدى ممن يمشي مكبا

وهكذا لن يمكن أن نفهم المعنى إلا بتقدير الكلام، حتى نربط بين فجواته وفُرَجه، فيأتي المعنى مكتملا نتملاه ونتلمسه وكأنه مكتوب حقا. وهذا ضرب من ضروب الإعجاز؛ وكلام في غاية النسج المحبوك والتماسك المتراصّ والسبك المحْكَم.

والدارس الذي ينعم النظر في التفاسير، وخاصة تفسيري الزركشي والسيوطي، نجد أنهما قد أشارا إلى ظاهرة الاحتباك من خلال تفسير الجم الغفير من الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها الاحتباك، فمنها؛قوله سبحانه:(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)** [22] وقوله تعالى:(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**)[23]، وقوله عزَّ مِن قائل:(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَسَيِّئًا**)[24]، وغير ذلك كثير في القرآن الكريم، مما لا نستطيع ذكره في هذا المقام، إذ الغاية من هذه الدراسة الإيماء إلى الاحتباك الحاصل في كتاب الله – عزّ وجلّ–من خلال بعض النماذج لا غير.

بيد أنّ "**السيوطي** تجاوز نظرة **الزركشي** التي انصبت على الجانب البلاغي إلى ما هو أعمق؛ حيث ربط بين هذا النمط من الحذف وبين معنى النص؛ إذ لا يكتمل معناه إلا بتقدير المحذوف وسد ما في النص من فراغ، ولذا سماه احتباكا من حبْك الثوب الذي بين خيوطه من فراغ، وهذه النظرة متفقة إلى حد كبير مع نظرة علماء النص المحدثين إلى ظاهرة الحذف حيث يؤدي دورا أساسيا في الترابط بين عناصر النص؛إذ لولا تقدير هذه المحذوفات لبقي النص مفكك العناصر والأجزاء" [25].

ولولا القيم الدلالية للحذف بصفة عامة- والاحتباك جزء من الحذف- المشحونة بالمعاني الغفيرة، لما ألفينا الكثير من البلاغيين و الأسلوبيين يتناولونه بالدرس والإشارة.

فهذا عبد القاهر الجرجاني يشير إلى الحذف وما له من قيم ودلالات فنية تخدم النص وتربط بين فجواته و فراغاته.يقول:" هو بابٌ دقيقُ المسلك لطيفُ المأخذ عجيبُ الأمر شبيه بالسِّحر فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن"[26]. ألا ترى أن الجرجاني قد سبق الأسلوبيين والبلاغيين والنقاد المحْدثين إلى قضايا التلقي بصفة خاصة، وها نحن نراه يقول:

1- الحذف من حيث التلقي شبيه بالسحر، لما فيه من قوة الحبك وأثر اللذة.

2- ترك الذكر أفصح من الذكر، أو بعبارة أخرى أسلوب التلميح أفصح من أسلوب التصريح.

3- الصمت عن الإفادة أزيد (من حيث **الدلالة**) للإفادة

4- أنطق ما تكون (بترك **الفجوات** والفراغات) إذا لم تنطقْ

5- أتمّ ما تكون بيانا (بالإيجاز والاحتباك والترميز والإيماء..) إذا لم تُبِنْ

وهذه المسألة التي أشار إليها الجرجاني منذ قرون عِدّة، ذكرها النقاد المحدثون، وأن فكرة الفراغ أو الغياب "تتنازعها مجالات معرفية مختلفة ومنذ القدم.. ولعل مصطلح **وولف غانغ إيزر** (ISER) أكثر وضوحا في هذا الشأن، فالفراغ الذي لا يستدعي البناء لا خير في جماليته..فأصبح الغائب حكما على الحاضر بعد أن كان الحكم الوحيد هو معيار الحاضر على الغائب.

إنّ جمالية **الفراغ الباني** (LE Vide CONSTITUTIF)التي أحاطها(**إيزر**) بالعناية، تستدعي القارئ الضمني أو القارئ النموذجي حسب (امبرتو إيكو) الذي يقوم بسد الفراغات أو الثغرات أو الفجوات. وفي هذه الحالة يتوافر النص على (فائض المعنى).

وتقوم حينئذ القراءة بتسديد **دَيْن المعنى** (LA dette du sens) أو يمكن النظر إلى هذه المسألة بمنظور آخر دعاه كل من ميخائيل ريفاتير و كريستيفا " بالإنتاجية".

فالنص يمتلك قدرة منتجة كامنة فيه، أما القارئ فهو من مقولة المحمولات.فهو المنتج لطاقة المعنى الكامنة في النص. فحضوره يمثل شراكة لا يمكن الاستغناء عنها في استكشاف شعرية الغياب في النص.

وهكذا، يحدث تفاعل وحوار بين القارئ والنص، أو بين القيم الفنية والقيم الجمالية، فالقيم الفنية من تراسب النص، والقيم الجمالية من صلب القارئ. إنّ هذا المصير المشترك يضمن ديمومة شعرية الغياب، وتجدّدها في العطاء والإنتاج، وهو مقصد من مقاصد نظرية القراءة[27].

ولقد حفلت المدونات النقدية قديما وحديثا، بالمتلقي الذي يستقبل النص ويتعامل معه تعاملا إيجابيا، إذ يقوم"بمجموعة من العمليات الذهنية الناتجة عن الحذف لسد الفجوات التي تقع على المستوى التركيبي أو سطح النص اعتمادا على معرفته الأساسية بالأعراف التركيبية" [28].

خاتمـــــــــة

وبعد؛ فإن هذه الدراسة كان القصد منها تبيان ما في القرآن الكريم من تكرار ظاهرة الاحتباك وتنوع دلالاتها الجمالية والإعجازية في آن واحد.

ولسنا نزعم أن ظاهرة الحذف – بصفة عامة – قد انفردت بها اللغة العربية طُرّاً، بل أن هذه الظاهرة لا تخلو منها لغة من اللغات الإنسانية بصفة عامة، ولكن لا شك أن الحذف في القرآن الكريم يُعد سمة واضحة من سمات أسلوبه، ووجها من وجوه إعجازه..

كما يعد الحذف من وسائل التماسك النصي، حيث لا يكتمل بناء النص إلا بتعيين المحذوف، وتقديره في مكانه من النص؛ إذ بدون تقدير المحذوف يصبح النص مفككا لا روابط بين عناصره.كما أن الحذف يتخذ القرآن الكريم مستويات مختلفة، وأنماطا متعددة، فقد يتم على مستوى الحرف، أو على مستوى الكلمة المفردة، كما نجد أنماطه متعددة حيث يدل كل نمط منها على معنى لا نجده في النمط الآخر، ومن ذلك الاكتفاء والاقتصار على أحد شيئين، وعود الضمير على أحد شيئين، والاحتباك أو الحذف المتقابلي.

وانطلاقا من هذا الاعتبار، كان للحذف علاقة قوية بالمعنى؛ لأن معنى النص من القرائن التي تشير إلى المحذوف وتعيّنه، ومن ثم يؤدي الحذف– والاحتباك من ضمنه– من الدلالات القوية والمعاني الكثيفة ما لا يؤديه الذكر والتصريح[29].

الإحالات

1-شمس العرب تسطع على الغرب / زيغريد هونكه، نقله عن الألمانية:فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار صادر – بيروت + دار الآفاق الجديدة – بيروت،ط:8(د ت)،ص:367

2- المعايير النصية في القرآن الكريم / د أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط:1 / 2010،ص:48

3- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (المتوفى : 711هـ)،دار صادر – بيروت ،ط:3، 2004،ج:4،ص:19 – 20

4-تاج العروس من جواهر القاموس/ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ،تحقيق: مجموعة من المحققين،الناشر دار الهداية،ج:27،ص:101

5-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير/ الفيومي - (ج 2 / ص 268)

6-ينظر: الإتقان في علوم القرآن/ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،ج:3،ص:138 -140، كما ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها / للميداني، ج: 1 ،ص:506 – 507.

7-الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة: 1394هـ/ 1974 م،ج:3 ،ص: 204.

8-التعريفات/ القاضي الجرجاني، ج:1، ص:2

9-و " المجرة " باب السماء، وقيل: هي الطريق التي تسير منها الكواكب " الدسيعة " الجفنة، أو المائدة الكبيرة، وضخامتها: كناية عن الكرم، لأن ذلك يدل على كثرة الآكلة الذين يلتفون حولها " فدعاء " هي المرأة التي اعوجت إصبعها من كثرة حلبها، ويقال: الفدعاء هي التي أصاب رجلها الفدع من كثرة مشيها وراء الإبل، والفدع: زيغ في القدم بينها وبين الساق، وقال ابن فارس: الفدع اعوجاج في المفاصل كأنها قد زالت عن أماكنها. " عشاري " العشار: جمع عشراء - بضم العين المهملة وفتح الشين - وهي الناقة التي أتى عليها من وضعها عشرة أشهر، وفي التنزيل الكريم: (وإذا العشار عطلت).

الإعراب: " كم " يجوز أن تكون استفهامية، وأن تكون خبرية " عمة " يجوز فيها وفي " خالة " المعطوفة عليها الحركات الثلاث: أما الجر فعلى أن " كم " خبرية في محل رفع مبتدأ، وخبره جملة " حلبت " وعمة: تمييز لها، وتمييز كم الخبرية مجرور كما هو معلوم، وخالة: معطوف عليها، وأما النصب فعلى أن " كم " استفهامية في محل رفع مبتدأ، وخبره جملة " حلبت " أيضا، وعمة: تمييز لها، وتمييز كم الاستفهامية منصوب كما هو معلوم، وخالة معطوف عليها، وأما الرفع فعلى أن كم خبرية أو استفهامية في محل نصب ظرف متعلق بحلبت أو مفعول مطلق عامله " حلبت " الآتي، وعلى هذين يكون قوله " عمة " مبتدأ، وقوله " لك " جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت له، وجملة " قد حلبت " في محل رفع خبره، وتمييز " كم " على هذا الوجه محذوف، وهي - على ما عرفت - يجوز أن تكون خبرية فيقدر تمييزها مجرورا، ويجوز أن تكون استفهامية فيقدر تمييزها منصوبا، و" فدعاء " صفة لخالة، وقد حذف صفة لعمة مماثلة لها كما حذف صفة لخالة مماثلة لصفة عمة، وأصل الكلام قبل الحذفين " كم عمة لك فدعاء، وكم خالة لك فدعاء " فحذف من الأول كلمة فدعاء وأثبتها في الثاني، وحذف من الثاني كلمة لك وأثبتها في الأول، فحذف من كل مثل الذي أثبته في الآخر.وقد أنهى بعض المتأخرين ذلك إلى نيف وثلاثين موضعا وما لم أذكره منها أسقطته لرجوعه إلى ما ذكرته أو لأنه ليس بصحيح.

والأصل في الأخبار أن تؤخرا ... وجوزوا التقديم إذ لا ضررا.

الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ فاستحق التأخير كالوصف ويجوز تقديمه إذا لم يحصل بذلك لبس أو نحوه على ما سيبين فتقول قائم زيد وقائم أبوه زيد وأبوه منطلق زيد وفى الدار زيد وعندك عمرو وقد وقع في كلام بعضهم أن مذهب لك وأثبتها في الأول، فحذف من كل مثل الذي أثبته في الآخر، وهذا ضرب من البديع يسميه أهل البلاغة" الاحتباك ".(ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك/ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : 769هـ)،تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه،ط: 20 - 1400 هـ - 1980 م.ج:1،ص226 - 227:[مذيل بحاشية : منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل].

10- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط الشافعي المعروف بـ:البقاعي نسبة إلى البقاع بالشام(809- 885) من آثاره تفسيره الفريد: نظم الدررفي تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، والفتح القدسي في آية الكرسي الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان ، وسر الروح، وعنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران .(شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية / محمود توفيق محمد سعد/ج:1 ،ص: 51).

11-سورة آل عمران، الآية 13

12- الجدول في إعراب القرآن / محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ)، دار الرشيد مؤسسة الإيمان – دمشق ط:4 – 1418 هـ،ج:3 ،ص: 123.

13- إعراب القرآن وبيانه / محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) ط:4 - 1415 هـ ،ج:1 ،ص: 466.

14-في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية / د سعد مصلوح،عالم الكتب، ط:1427،1 هـ ،ص:228.

15-سورة النمل، الآية 86

16-في ظلال القرآن / سيد قطب،دار الشروق،بيروت-القاهرة،ط:15، (1408هـ/ 1988م)،ج:5،ص:2668

17-سورة الملك، الآية 22

18-سورة مريم، الآية 43

19-التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»/محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)،الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 ،ج: 29 ،ص:44 - 46

20-ينظر: المعايير النصية في القرآن الكريم/ د أحمد محمد عبد الراضي، مصدر سابق،ص:88

21-سورة النحل، الآية 17

22-سورة الزمر، الآية 9

(23)سورة هود، الآية 35

24-سورة التوبة، الآية 102
25-المعايير النصية، ص:89
26-دلائل الإعجاز/ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق : د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي – بيروت،ط: سنة 1995،ص:121
27-ينظر:شعرية الغياب و جمالية الفراغ الباني/ أحمد يوسف (مجلة: تجليات الحداثة،معهد اللغة العربية و آدابها – جامعة وهران،ع:4 – يونيو 1996)، ص: 108 و ص ص :125-126
28-نظرية علم النص :رؤية منهجية في بناء النص النثري / د حسام أحمد فرج،مكتبة الآداب،ط:1 – 1428هـ /2007م ،ص:88
29-ينظر:المعايير النصية في القرآن الكريم،مصدر سابق،ص:97-98.